الموسيقى المصرية ... إشكالية التنوع.... ثراء أم فوضى ؟

أ.د محمد شبانه*

تتعدد أشكال الإنتاج الموسيقى فى مصر منذ فترات زمنية طويلة ، وهو مارصدته دراسات المستشرقين ، ولعل أبرز شاهد على ذلك كتاب وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية ، وكذلك ما أورده وليم إدوارد لين فى كتابه "المصريون المحدثون عاداتهم وشمائلهم "، كذلك ما أورده ماسبيرو فى كتابه عن الأغانى الشعبية فى صعيد مصر وما أوردته برجيت شيفر فى رسالتها عن الموسيقى فى واحة سيوه ، ناهيك عن الدراسات الأكاديمية المستفيضة التى تناولت الموسيقى المصرية فى تجلياتها المختلفة على مدار ما يقرب من قرن مضى .

ولعل هذا التنوع والتعدد فى أشكال الموسيقى المصرية يعود لأسباب ومؤثرات كثيرة منها ماهو قديم أصيل ،ومنها هو وافد دخيل ، ناهيك عن أثر الميديا والتكنولوجيا فى عصرنا الحديث وما اتاحته من أدوات ومواد صوتية اتاحت للكثيرين خوض غمار التلحين والتأليف والغناء وعرض هذه المنتجات عبر وسائل التواصل الإجتماعى فى حرية تامة دون الوقوع فى دوائر الرقابة الفنية أو المجتمعية .

ويمكن لنا أن نميز أنواعا ومستويات بعينها فى المشهد الموسيقى المصرى المعاصر ، فهناك مايمكن أن نطلق عليه "الموسيقى المصرية التقليدية Egyptian traditional music" وهى القوالب الغنائية والآلية التى أبدعتها قريحة الملحنين والمغنين والشعراء فى فى القرن التاسع عشر وحتى ثلاثينيات القرن العشرين ، وهو يطلق عليه البعض أسماء عديدة منها (موسيقى النهضة ، والموسيقى الفصحى والموسيقى العربية)، إلى آخر هذه التسميات متعددة الدلالة .

* استاذ الموسيقى الشعبية – رئيس قسم فنون الأداء الشعبى المعهد العالى للفنون الشعبية – عميد المعهد العالى لفنون الطفل – أكاديمية الفنون

وهناك مايمكن أن نطلق عليه "الموسيقى الدارجة popular music" ،وهى الموسيقى التى انبثقت عن الموسيقى التقليدية غير أنها استمدت عناصرها الفنية من مصادر متعددة شعبية وحداثية وذلك لتعبر عن زمانها وتكسب لها حضورا جماهيرا عريضا .

وهناك "الموسيقى الشعبية المصرية folk music"وهى ذلك النشاط الموسيقى والغنائى الذى يواكب دورة حياة الإنسان المصرى منذ ميلاده حتى وفاته ،مرورا بالزواج ومناسباته المختلفة .

ويتنوع هذا النشاط الموسيقى والغنائى الشعبى وفق سياقاته الثقافية والأدائية ، فهناك أغانى العمل وأغانى السمر والسيرة والموال والأغانى الدينية والطقسية ،ناهيك عن التنوع والثراء فى الألآت الموسيقية الشعبية التى تصاحب هذا الإنتاج والتى تختلف فى أشكالها باختلاف المناطق الثقافية التى تنتمى اليها من بدو وحضر وريف وسواحل وواحات الخ.....

وإذا القينا نظرة على ما يقدم من انتاج موسيقى فى الفضاء الثقافى المصرى المعاصر فسوف نجد تنوعا هائلا فهناك الموسيقى الكلاسيكية الغربية التى تقدم من خلال فرق دار الأوبرا ، وهناك موسيقى الجاز وهناك الموسيقى الصوفية وهناك مايطلق عليه اصحابة الموسيقى البديلة والمهمشة ، وصولا إلى أغانى المهرجانات والتى تجتذب قطاعات عريضة من الشباب فى مستويات اجتماعية مختلفة ، وما تبثه هذه الموجه من مفاهيم ملتبسة ومختلطة ومشوهة.

إن المتأمل للمشهد الموسيقى فى مصر فى وقتنا الحالى يجد نفسه فى حيرة من أمرة فهناك من ما يراه أصيلا متنوعا ، وهناك من ما يراه حداثيا متطورا ، وهناك من يراه متراجعا ومتخلفا .

ان الوضع الراهن لحال موسيقانا المصرية على اختلاف مستوياتها وأنواعها يدعونا للتساؤل " هل الموسيقى المصرية تدور فى فلك الأبداع المتجدد والثرى ، أما انها تراوح مكانها ، أم تتراجع فى قيمتها وتأثيرها .

وهل ما نشهده من أشكال و مسميات يستند إلى قاعدة ثقافية وفنية رصينة أم هو مجرد تعبير عن قلق مجتمعى أودى إلى حالة من الفوضى فى مجالات مختلفة جاءت الموسيقى لتكون وجهتها والمعبرة عنها .

لعل الحالة التى نحن بصددها تدعونا إلى القلق وإعمال الفكر حيال هذا الواقع الفنى المتأرجح والملتبس الذى نلمسه ونعيشه، وهو ما يدعونا إلى التساؤل عن أنسب السبل البحثية والمناهج العلمية الملائمة لدراسة هذا التنوع فى موسيقانا المصرية ، والتعرف على أليات انتاجه ووظائفه الجمالية والإجتماعية ، ذلك أن كل نوع من هذه الموسيقى باشكاله ومستوياته يستدعى منهجا يجب أن يكون مناسبا لتناوله ودراسته .

هل آن لنا أن نتساءل بعد مرور كل هذه السنوات على إنشاء مؤسساتنا الموسيقية العلمية من كليات ومعاهد ، هل لدينا موسيقى كتابية أم لازات موسيقانا تدور فى فلك الشفاهية أو ما نطلق عليه السماعى ؟، وهل تكرس التكنولوجيا لهذا المنحى الشفاهى فى انتاج الموسيقى؟

وهل آن للموسيقى العلمية أو المتطورة كما يحلو للبعض أن يسميها أن تكون حاضرة على ساحة الإبداع الموسيقى المصرى ؟

أعتقد أن السؤال الكبير الذى يفرض نفسه وبشده علينا جميعا هو :

" هل التنوع فى موسيقانا المصرية فى وقتنا الراهن ثراء أم فوضى .